المحور الأول: – الفاعلون الاجتماعيون في التغير الاجتماعي.

المحاضرة الأولى: الفعل الاجتماعي

1- تعريف الفعل الاجتماعي:

استعمل علماء الاجتماع مصطلح الفعل الاجتماعي بكثرة في كتاباتهم ونظرياتهم، حيث يعتبر علماء الاجتماع أن الفعل يصبح اجتماعيا عندما يتصرف الفاعل بطريقة معينة تؤثر على تصرف الآخرين، والتصرف الاجتماعي هو أساس التفاعل الاجتماعي وهو الذي ينمي شخصيات الأفراد الذين يكونون العلاقات والتفاعلات الاجتماعية، ويعتبر ماكس فيبر أول من ادخل مصطلح الفعل الاجتماعي في علم الاجتماع وجعله القاعدة الأساسية للنظرية الاجتماعية فقد قسم فيبر الفعل والسلوك الاجتماعي إلى ثلاثة أقسام: السلوك الاجتماعي الانفعالي، السلوك الاجتماعي التقليدي والسلوك الاجتماعي العقلي، إلا أن ماكس فيبر اعتمد على اصطلاح السلوك الاجتماعي العقلي اعتمادا كبيرا عندما قام بتحليل الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية.

الإنسان كائن اجتماعي، سلوكه موجه بفعل لانجازه هدف ما، فإذا كان الفعل مجرد لا يستهدف كائنا آخرا أو غايته ذاتية بحتة يختص بالكائن ذاته فالفعل يعتبر فعلا غير حي، لكن حين يكون السلوك والممارسة فعل موجه لانجاز هدف محدد لكنه يستهدف كائناً آخراً، أي أن الهدف المنجز منه ليس ذاتيا صرفا وإنما هدف جماعي يعتبر فعلا اجتماعيا، فغاية الهدف أو دافع الفعل ذا طبيعة اجتماعية لا يمكن انجازه دون أن يؤثر فيه كائن آخر يستفيد أو يتضرر منه.

ولكل فعل دافع محدد، له غاية محددة وبغض النظر عن نوع الهدف وقيمته فليس هناك أفعال عشوائية عديمة الأهداف والغايات كونها ناتجة عن كائنات عاقلة يحركها العقل وإلى حد ما الغريزة لذلك تكون أفعالها ناتجة عن تفكير مسبق، والتفكير حالة من التعقل لانجاز هدف أو غاية ما.

والجدل هنا لا يمس العلاقة بين شدة الفعل وقوة السبب، ولا بدقة أو عدم دقة تحقيق الهدف وإنما درجة القياس تبحث في ممارسة الفعل وغائيته ذاتية أو اجتماعية الذي يحدده السلوك الفردي المرتبط بالوحدة الذاتية للكائن المستقل الذي يبغي هدفا محددا من فعله، وبذات الوقت فإن السلوك الفردي المرتبط بالوحدة الذاتية للكائن باعتباره جزء من وحدات اجتماعية متماسكة، يؤثر ويتأثر بها فالهدف المنجز حينئذ يكون هدفا مشتركا يحقق غاية مشتركة.

ولقد أشارات الدراسات التحليلية للحياة الاجتماعية إلى أنها تبدأ بفعل اجتماعي يصدر عن شخص معين يعقبه رد فعل يصدر من شخص آخر ويطلق على التأثير المتبادل بين الشخصين أو بين الفعل ورد الفعل اصطلاح التفاعل، لذا لابد أن نفرق بين الفعل الاجتماعي وبين غيره من الأفعال غير الاجتماعية فالفعل الاجتماعي وفقا لتعريف ماكس فيبر هو " السلوك الإنساني الذي يحمل معنى خاص يقصد إليه فاعله بعد أن يفكر في رد الفعل المتوقع من الأشخاص الذين يوجه إليهم سلوكه "هذا المعنى الذي يفكر فيه الفرد ويقصده هو الذي يجعل الفعل الذي يقوم به اجتماعيا.

2- خصائص الفعل الاجتماعي: يعد التساند والصراع والتوافق إحدى مقومات التنظيم الاجتماعي، فعلاقة الفرد وتفاعله مع الآخرين مرتبط بالكيانات الاجتماعية التي تواجد بها، حيث تتحدد قوة توجيه فعله الاجتماعي نحو مختلف المواقف الاجتماعية التي يواجهها، ومن ثم فإن هذا التفاعل الاجتماعي لا يتم خارج الجماعة، ولا ينشأ بدونها وعليه فالفعل الاجتماعي لا يكون اجتماعيا إلا بتوفر خصائص ومميزات اجتماعيه ومنها:

أ- يجب على الأفراد أن يأخذوا في اعتبارهم، حضور الآخرين ووجودهم حولهم أو في مجالهم هذا يعني حتى لو أن الأفراد موجودين في نفس المكان، لكن كل منهم غير أخذ بعين الاعتبار لهذا الوجود أو الحضور للطرف الأخر لا يعتبر فعلا اجتماعيا من وجهة نظر ماكس فيبر لأنه ينتفي التفاعل الاجتماعي.

ب- أي أن يكون للفعل قيمة الدليل أو الرمز بالنسبة للفرد وللأفراد الآخرين أي أن سلوك الفرد يندرج ضمن نسق الاتصال بين الأفراد.

ج- ينبغي أن يتأثر أي فعل اجتماعي لإدراك الفرد أو المجموعة من الأفراد بفعل الآخرين أي يبرهنوا عبر سلوكهم أو فعلهم الاجتماعي أنهم فهموا غايات ومقاصد الآخرين.

3-سوسيولوجيا الفعل الاجتماعي:

- الفعل الاجتماعي عند ابن خلدون:

الإنسان كابن اجتماعي، سلوكه و ممارساته اليومية موجه بفعل هدف ما، ذلك أن غريزة الاجتماع تعد لازمة أساسية من لوازم الطبيعة البشرية ومن خصائص الكائن البشري البيولوجية والنفسية، ويعتبر ابن خلدون الفعل الاجتماعي من الأحوال التغيرية على اعتبار أن جميع التحولات التي يشهدها العالم العربي الإسلامي يجب النظر إليها في إطار العلاقة الجدلية بين الفكرة الدينية والإنسان العربي المسلم وبناءا على ذلك فإن نظرية ابن خلدون في التغيير الاجتماعي تقوم على دعائم أساسية هي: الاستبصار الإيمائي (الرؤية الدينية) الأداة التاريخية (الجماعة أو العصبية)، الاقتران بين الاستبصار الإيمائي والواقع الاجتماعً في حدوث عملية التغير الاجتماعي

- الفعل الاجتماعً عند ماكس فيبر:

الفعل الاجتماعي هو أحد أنواع الفعل الإنساني، وله خصوصيّة تميزه عن غيره من الأفعال، وهو يعتبر الأساس الذي تقوم عليه "السوسيولوجية الفيبرية"، ففي الوقت الذي يعرف فيه فيبر الفعل الإنساني على أنه سلوك أو نشاط يرتبط بمعنى ذاتي خاص بالفاعل، فإن فيبر يعرف الثاني على النحو التالي""يكون الفعل اجتماعيًا؛ إذا تعلق معناه المقصود من قبل فاعله أو فاعليه بسلوك الآخرين، الذين يوجهون حدوثه".

إذاً الفعل الاجتماعي هو الذي يتوجه بسلوك الغير، ويرتبط بمعنى مشترك معه، فمثلًا: إذا قمت بفتح نافذة الحجرة لكي يدخل الهواء النّقي، فإن هذا السّلوك هو فعل إنساني، له معنى ذاتي مقصود للفاعل، ولكنه ليس فعلًا اجتماعيًا، وكذلك الحال

إذا أردت أن أُروح عن نفسي، فأخذت أُدندن وأنا جالس وحدي في غرفتي، فإن هذا الفعل ليس اجتماعي، ولكن لو أنني كنت أشاهد مباراة كرة القدم مع مجموعة من الأصدقاء، وأخذنا ننشد سويًا أناشيد حماسيّة لتشجيع الفريق في الملعب، فإن هذا السّلوك يمكن أن يسمى: فعل اجتماعي، لأنه ارتبط بسلوك الآخرين، الذين وجهوا سلوكي. والأمر كذلك لو أنني كنت في عرسٍ ريفي واصطف الحضور في صفين يجيب كلاً منهم الآخر بمقطع من الأهازيج الشّعبيّة، وقد كنت من بينهم، فإن سلوكي هنا أيضًا هو استجابة أو متأثر ومتوجّه بسلوك الآخر، وبالتالي فإنه سيكون فعلاً اجتماعيًا.

ومن جهة أخرى فإن التأثير الذي يمارسه الآخر على سلوكي أو فعلي الاجتماعي ويسهم في توجيهه له أنواع يحددها فيبر، على النّحو التالي: "الفعل الاجتماعي: يمكن أن يتوجه بمؤثر آخر حاضر أو ماض أو منتظر في المستقبل، و يمكن أن يكون هذا الآخر – أو الآخرين- معروف أو غير معروف".

إذًا الفاعل الآخر الذي يوجه سلوكي فيجعل منه فعلاً اجتماعيًا، قد يكون موجود أمامي حاضر- على سبيل المثال – عندما أجلس بصمت وهدوء في قاعة يتكلم فيها أحد النّاجين من مجازر القتلة، فتنساب الدّموع من مقلتي. ولكن قد يكون الباعث لهذا السّلوك مؤثر قديم كأن أتذكر زوجتي المتوفاة من عدة سنوات فأذرف لفقدها الدّموع. وقد يكون الباعث مستقبلي؛ كأن أتذكر واجب تسديد مبالغ طائلة للدائنين في نهاية العام فأصاب بالحزن وأرثي لحالي، وكذلك فإن هذا الباعث الذي يؤثر في فعلي قد يكون واحد أو متعدد، معروف أو غير معروف، مثلاً عندما أذهب للحلاق، وأطلب منه أن يهذب شعري؛ لكي أظهر بمظهرٍ لائق أمام زبائني في المتجر الذي أعمل به، فإن المؤثر في سلوكي هو متعدد وغير معروف، وبالتالي فإن هذا السّلوك هو فعل اجتماعي، خضع لتوجيه العديد من الناس الذين يزورون متجري، وهم زبائن متوقعين، وليس بالضرورة أن يكونوا معروفين بالنسبة لي أم لا، ولكن من جهة ثانية يرى فيبر أنه ليس كل فعل خضع لمؤثر خارجي هو فعل اجتماعي، أو كما يقول: "ليس كل نوع من الفعل، يخضع لمؤثر خارجي يكون فعل اجتماعي- بالمعنى الثابت للكلمة – ولكن فقط عندما يتوجه الفعل بسلوك موضوعات واقعية".

من جهة أخرى أيضًا لا يُعتبر كل سلوك ترافق مع تواصل بين فاعلين فعل اجتماعي، يقول فيبر:"ليس كل نوع للتواصل الإنساني يكون ذا طابع اجتماعي، بل فقط بالشكل الذي يوجه فيه سلوك الآخر السلوك الخاص".

فمثلاً لو أنك جلستَ إلى طاولة في أحد المقاصف، ثم وأنت ترشف فنجان من القهوة جلس مجموعة من الزبائن إلى نفس الطاولة ليتناولوا كذلك القهوة، فإن مثل هذا السّلوك لا يعتبر تواصل أو فعل اجتماعي، إذ أن هذا الاجتماع كان محض صدفة، ولا يتضمن توجيه للسّلوك الخاص، وإن كان يتمظهر بطابع اجتماعي، في حين لو أن هذا اللقاء كان عن تعارف وموعد مسبق، فلا شك حينها أنه سوف يكون فعل اجتماعي. ثم إن فيبر يفترض وجود أربعة أنواع، هي بمثابة أنماط مثالية للفعل الاجتماعي هي:

أ- النمط المثالي للفعل الموجه بأهداف عقلية: وهو ببساط كل فعل اجتماعي يقوم به الفاعل بتحديد السّبل والشّروط الصّحيحة الّتي تمكّنه من بلوغ هدفه بصورة عقلانيّة.

ب- النمط المثالي للفعل الموجه بالقيم: وهو كل فعل ذا طابع اجتماعي يقوم به الفاعل على خلفية توجهه بقيمة أخلاقية أو بتعاليم دين أو مذهب ما، وذلك بصورة عقلانية محسوبة.

ج- النمط المثالي للفعل الموجه بالعواطف: هو جميع الأفعال التي يكون الباعث الموجه لها، نابع من العاطفة؛ إيجابية كانت أم سلبية.

د- النمط المثالي للفعل الموجه بالتقاليد: وهو من الأفعال المنتشرة في المجتمع على نطاق واسع، فهو كل فعل اجتماعي نأتي به على خلفية التوجه بالتقاليد والعادات الخاصة بنا.

من جهة ثانية، فإن فيبر يتحدث عن فعل اجتماعي يمكن أن يتوجه بعدة بواعث في آن واحد، فمثلًا لو أخذنا حالة (أستاذ جامعي يمتنع عن التدخين)، ثم يتبين لنا أنه أقدم على هذا الامتناع لعدة بواعث، هي:

- باعث عقلي: لأن التدخين مضر بالصحة كما أثبتت الأبحاث الطّبية والنّفسيّة، فهذا هو النوع الأول من أنماط الفعل.

- باعث قيمي: لأنه أستاذ جامعي فهو يريد أن يحقق في شخصه مفهوم القدوة لطلبته، لذلك فقد عدل عن التدخين، وهذا هو النوع الثاني من أنماط الفعل.

- باعث عاطفي: لأن زوجته تكره رائحة التدخين، وحبه لها يدفعه لتجنب إزعاجها بهذه الرائحة الكريهة، لذلك ترك هذا الفعل السيئ، وهذا هو النوع الثالث من أنماط الفعل.

- باعث تقليدي: التقاليد الأكاديمية لا تعتبر أن وجود أستاذ جامعي مدخن شيء مألوف، بل هي لا ترحب بمثل هذا الفعل، لذلك تماشيًا مع تقاليد العمل الأكاديمي أقلع عن التدخين، وبالتالي هذا هو النمط الرابع من الأفعال. .

- الفعل الاجتماعي عند دوركايم إميل:

يعرف دوركايم الفعل الاجتماعي على أنه **":**كل طرق السلوك والتفكير والشعور، وهذه الطرق خارجة عن الفرد، وهي تتمتع بسلطة من القسر تفرض نفسها، فديناميكية الفعل

الاجتماعي من منظور دوركايمي تتجلى بوضوح عند انتقال المجتمع من التضامن الآلي إلى التضامن العضوي وذلك يكون من خلال تقسيم العمل الذي يترتب عليه تباين بين الأفراد، وما يؤخذ على تعريف دوركايم للفعل الاجتماعي لا يبين عملية التفاعل ويركز فقط على القسر الخارجي، ويحدد الفعل من خلال البيئة، فهو يجمع بين ما هو داخل ذوات الأفراد بما هو خارج الأفراد.

– الفعل الاجتماعي عند فلفريد باريتو:

يميز باريتو بين نموذجين من الفعل الاجتماعي، الأول سلوك منطقي، والثاني غير منطقي، أما المنطقي فيكون عندما يهدف الفاعل لتحقيق غاية بطريقة موضوعية، والوسائل المتبعة متفقة معها، وأما غير المنطقي فهو ما خرج عن دائرة ما وصفناه بالمنطقي، وهذا لا يعني أنها أفعال مضادة للمنطق، ومن ميزة الأفعال المنطقية أنها وليدة الطبيعة البشرية، ضف إلى ذلك أنها تسعى لتحقيق مصالح دقيقة، تشكل قوة دافعة بعد إدراكها لتكون محركا للسلوك ، لأن الفعل المنطقي يتحرك وفق الاستدلال العقلي بين الغاية والوسيلة. إذن فديناميكية الفعل الاجتماعي عند باريتو "تتضح عند اعتباره أن المجتمع نسق يحقق التوازن، ويتألف من أجزاء مساندة، وأي تغيير يمس جزءا من أجزائه يؤثر على الأجزاء الأخرى، وترتبط حالة النسق بالبيئة الخارجية (الظروف الخارجية)إلى جانب العناصر الداخلية للنسق والتي لها دور أساسي في توازن النسق.

– الفعل الاجتماعي عند تالكوت بارسونز:

يعتبر تعريف بارسونز للفعل الاجتماعي من أهم التعريفات وذلك من خلال تحليله البنائي لأنساق الفعل، والتي يرى فيها أن تعمل للتكامل فيما بينها من أجل المحافظة على التوازن ولإحداث تغيير يكون تدريجيا دون مشاكل أو خلل داخل البناء من خلال الارتباط الدينامي لأنساق الفعل الثلاثة (نسق الشخصية، النسق الثقافي، النسق الاجتماعي) كما حدد أسس للفعل الاجتماعي ويرى أن الفاعل مجبر على الاختيار بين ضروب السلوك دون أخرى، وذلك عند توجيهه لفعله من خلال متغيرات النمط، وأكد بارسونز أن الفعل الاجتماعي لا وجود له إلا من خلال أربع عمليات أو وظائف، وظيفة التكيف، تحقيق الهدف، التكامل وأخير المحافظة على النمط، وبالتالي فالنسق دائما يسعى إلى التوازن لأن الفعل ما هو إلا عامل يؤدي إلى التوازن أو عدمه.

ومن تعريفه للفعل الاجتماعي الموصوف بأنه" فعل متبادل بين فاعلين أو أكثر، ويتطور من خلال مجموعة من القواعد السلوكية، المعايير والقيم المجتمعية والنظامية التي توجد في الثقافة التي تحيط بالفعل الاجتماعي ذاته، يتبين أن الفعل الاجتماعي متعلق بالبيئة، المشاعر، الأفكار والدوافع، وردود الفعل.